شخصيات تاريخية

٣ - تيموستوكل

للأستاذ محمد الشحات أيوب

مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

(تابع)

تحتم إذن وضع خطة جديدة لمجابهة هذا الموقف الجديد ، فمن لليونان بقائد ماهر يستطيع وضع هذه الخطة ؟ لم يبحث اليونان كثيراً ، إنما نظروا إلى صفوفهم فوجدوه بينهم يحثهم على أن يتراجعوا ويتماسكوا ، فلما رأوه وكله ثقة واطمئنان إلى نتيجة النزاع وهي النصر الحاسم سرت الثقة بينهم وتجمدوا في أماكنهم كالثلج الذي وقع على الأرض لا يريد أن يبرحها وقد تركوا أمورهم إليه وأسلموا له القياد فوضع هذه الخطة التي كانت أساساً لما أحرزه اليونان من نصر عظيم في موقعة سلامين الشهيرة . وأظنك أيها القارىء بعد هذا لم يخف عليك أن هذا القائد صاحب هذه الخطة إنما هو بطلنا تيموستوكل العامل الرئيسي في إحراز النصر والاحتفاظ باستقلال اليونان كاملاً

اقتضت هذه الخطة أن يهجر الأثينيون مدينتهم إلى جزيرة سلامين القريبة من أرض وطنهم وأن يقف الأسطول اليوناني في المضيق البحري الذي يفصل بين أثينا وسلامين ، وهو مكان ضيق جداً ، إلى شماله تقع سواحل أتيكا ، وإلى جنوبه وغربه تقع سواحل سلامين ، وقد اختار تيموستوكل هذا المكان لضيقه لأنه عقد العزم على أن تكون الموقعة الفاصلة في البحر ، وشجعه على ذلك هذا النجاح الذي أحرزه في الموقعة البحرية السابقة موقعة الأرتيميزون ، وفي هذا المكان الضيق تنعدم الميزات الناشئة عن كثرة العدد وعما يمكن أن يقوم به العدو من حركات التفاف وتطويق بالنسبة لأسطوله الزاخر بالسفن . واختار هذا المكان أيضاً لقربه من جزيرة سلامين وإليها هاجرت الأسر الأثينية ، وهي بإقامتها في الجزيرة بالقرب من الأسطول لا شك خير مشجع لكل أثيني بل حافز لكل يوناني على الاستماتة والاستبسال في سبيل الدفاع عن أرض الوطن واستقلال البلاد ؛ ونحن نعلم ما كان للأرض عند اليونان من حرمة وقداسة فهي رمز لكيانهم في الحياة وفي الممات

لم ينل تيموستوكل بسهولة هذا القرار القاضي بإلزام الأسطول اليوناني ساحل جزيرة سلامين الشمالي وإنما ناله بعد كبير عناء ، لأن اليونان كانوا مترددين جد التردد في التزام هذا المكان . وكان القائد الأعلى وهو إريبياد متردداً هو الآخر ، بلغ تردده حداً عظيماً جداً لأنه كان غير واثق من النصر من ناحية ، ولأنه كان يريد التراجع نحو الجنوب للدفاع عن بلاده وهي شبه جزيرة البيلوبونيز من ناحية أخرى . وقد عقد القواد ثلاثة مجالس حربية ظهر فيها هذا التردد بأجلى معانيه ، لذلك لم يكن أمام تيموستوكل إلا أن يسلك سبيل التهديد والوعيد ، فهدد بترحيل العائلات الأثينية إلى بلدة سيريس في جنوب شبه جزيرة إيطاليا واتخاذها مقاماً للأثينيين جميعاً . وهم بهذه الهجرة يتركون الإسبرطيين وبقية اليونان وحدهم ، فلم يستطع القائد الإسبرطي بعد هذا إلا أن يسلم بوجهة نظر تيموستوكل وهو صاغر للنصيحة ومستسلم لهذا الإرشاد ، آملاً انتهاز فرصة مقبلة لتنفيذ رأيه القاضي بالتقهقر والتراجع ، وهو قد رأى هذه الفرصة قد أقبلت حينما علم بحركات الأعداء وقرب إقدامهم على الهجوم ، فعزم على التراجع نحو الجنوب من جديد . وتفسير ذلك أن أجزرسيس عاهل الفرس جمع قواده في فاير واستشارهم فيما يجب أن يتخذوه من أمر لأنفسهم في هذه المعركة ، فأشاروا كلهم بضرورة الهجوم ما عدا الملكة أرتيميز ملكة الدوريين في جنوب غرب آسيا الصغرى ؛ وحجتهم في ذلك أن المكان ضيق فهم يستطيعون إذن القضاء على أسطول اليونان إذا ما هاجموه هجوماً عنيفاً ، وقد غاب عنهم أن المكان ضيق لا يتيح لهم القيام بحركات تطويق أو التفاف أو انقضاض ، وإنما يحتم عليهم أن ينبسطوا انبساطاً ، وبذلك تنعدم الفائدة عن التجمع والتركز فيسهل لسفن الإغريق الصغيرة الحجم أن تتسلط على سفنهم الكبيرة فتحصرها في هذا المكان الضيق وتصليها ناراً حامية

ولكن من أين لتيموستوكل هذا الهجوم وهو يكاد يكون الفرصة الوحيدة التي تجبر اليونان على التزام أماكنهم وإجبارهم على القتال ؟ لم يجد تيموستوكل أمامه إلا المكر والخداع ، وذلك

بأن يحث الفرس على المضى فى حركاتهم الهجومية ، بل والإسراع فيها ، فأرسل إلى ملكهم رجلاً من أتباعه يثق فيه كل الثقة ـ هو الخادم سيكينوس ـ لإبلاغه أن اليونان يحاولون الهرب من المضيق نحو الجنوب ، ولإيقافه أيضاً على حالة اليونان وتصويرها على أنها تنم عن انقسام فى الرأى وتشعب فى المصالح واختلاف فى الرغبات ؛ فإذا أراد القضاء التام على أسطول اليونان فليس له إلا أن يقوم بهجومه هذا ، بل ويسرع فيه ؛ وقد اقتنع ملك الفرس بهذا الرأى ، ووقع فى الفخ وأسرع فى الهجوم ، فاضطر اليونان إلى أن يلزموا أماكنهم ولا يبرحوها ، وبذلك نجح تيموستوكل فى حمل اليونان على البقاء فى مضيق سلامين والقتال فيه !

ثم انتهى أسطول الفرس بأسطول اليونان ، وانتصر اليونان انتصاراً عظيماً كان له دوى هائل فى البلاد المتحضرة حينذاك ، وليس لنا أن نتحدث هنا عن تفاصيل هذه المعركة البحرية الحاسمة التى كان لها شأن وأى شأن فى تقرير مصير بلاد اليونان لمدة قرنين على أقل تقدير ، وإنما لنا أن نقرر هنا أن الفخر فى إحراز هذا النصر الحاسم إنما يرجع أولاً وقبل كل شىء إلى تيموستوكل القائد الأثينى العظيم . من أجل هذا ، لا نعجب إذا علمنا أن جائزة عظيمة منحت له لجسارته وشجاعته وحسن توجيهه للمعركة

وهذه المعركة تعد فى نظرنا أهم عمل أتاه تيموستوكل فى حياته فهى من المعارك الحاسمة فى التاريخ ، إذ على إثرها زال الخطر الفارسى عن بلاد اليونان أو كاد ؛ وقد كانت هزيمة الفرس شنيعة جداً ، وبقدر ما كانت هذه الهزيمة ساحقة ، بقدر ما كان نصر اليونان عظيماً وحاسماً . ولقد اضطر اجزرسيس بعد ذلك إلى ترك بلاد اليونان ، ورجع إلى بلاده فى غير إبطاء ولا تمهل ، لأنه كان يخشى عواقب هذه المعركة ، ومر بمضيق الهيلليسبونت ، وهناك رأى الجسور التى كان قد بناها من قبل قد اقتلعتها الزوابع والأعاصير ، والشعوب التى كان قد أخضعها وهو فى طريقه إلى أثينا قد قامت بالثورة ضد سلطانه ونفوذه ؛ فلم يجد بداً من أن يترك ببلاد اليونان جزءاً من جيشه للاحتفاظ بسلطان الفرس على هذه البلاد ، ولانتهاز فرصة ربما تسنح فى المستقبل للتغلب على اليونان

أما اليونان ، فقد انقسموا على أنفسهم بعد زوال الخطر عنهم ، فاعتقد الاسبراطيون كما سبق أن اعتقدوا من قبل هم وغيرهم من بقية اليونان بعد موقعة ماراثون ، أن معركة سلامين نهائية ، لا يجسر الفرس أن يأتوا بعدها إلى بلادهم لغزوها . ورأى الأثينيون غير هذا الرأى ، إذ كانوا أكثر من الإسبرطيين حرساً وتبصراً بعواقب الأمور ، فاعتقدوا أن الفرس لا شك سيعيدون الكرة من جديد ، وقد كانوا على حق فى ذلك ، لأن الفرس لا زالوا ببلاد اليونان يأتمرون بإمرة قائدهم ماردونيوس الذى قادهم فى العام التالى إلى موقعة « بلاتية » ، وفيها التحموا بالجيش اليونانى وعلى رأسه الإسبرطى بوزانياس ، وكان أن انتصر اليونان من جديد ، وكان الانتصار عظيماً أيضاً

ولقد أسهبنا فى الحديث عن مقدمات معركة سلامين لأن النصر فيها راجع إلى ثيموستوكل قبل أن يرجع إلى أى شخص آخر ، ولم نخض فى تفصيلاتها الحربية التى لها مجال آخر غير هذا المجال وكنا مضطرين اضطراراً إلى هذا الإسهاب لأن هذه المعركة من أهم المعارك التى أثرت على عقلية اليونان ، ذلك أن اليونان لضعف أمرهم ولصغر شأنهم لم يؤملوا أن يحرزوا هذا النصر الحاسم ضد أكبر دولة قوية فى هذا العصر وهى دولة الفرس لذلك كان هذا الانتصار انقلاباً عظيماً فى بلاد اليونان ووضعها بالنسبة للدول الأخرى ، من أجل هذا قويت نشوة الفرح والسرور عندهم وزادت ثقتهم بأنفسهم ؛ وكان لهذه المعركة أيضاً دوى عظيم وتأثير كبير على العقلية اليونانية إذ ألهمت أحد كبار الشعراء وهو « إشيل » لجعلته يكتب ، وقد كان شاهد عيان للمعركة ، تراجيدية رائعة هى تراجيدية الفرس فى أسلوب قوى فتان رفع من شأن اليونان وقوى الثقة بأنفسهم بقدر ما وضع من أمر الفرس وعاملهم « أجرزسيس » فزادت حماسة اليونان وقوى شعورهم بأنهم أصبحوا دولة جديدة سيكون لها شأن خطير فى التاريخ . لذلك كانت هذه المعركة بداية لعصر جديد هو عصر ازدهار الحضارة الإغريقية وفيه وصلت الآداب اليونانية إلى القمة وتطورت العلوم والفنون ، بل ونظم الحكم التى حققت ما ترنو إلى تحقيقه الحضارة الأوربية الحديثة من حرية ومساواة ، فكانت الديمقراطية الأثينية فى عصر بركليس وكانت الآداب اليونانية فى عهد أشيل وسوفوكليس .

واعتزت أثينا بعد ذلك بهذا النصر ، فاعتبرها اليونان

صاحبة الفضل فى إبعاد الخطر الفارسى عنهم ، فالتفت حولها الدويلات اليونانية الصغيرة وعلى الأخص البحرية منها التى توجد فى بحر إيجه وطلبت إليها أن تدافع عنها ضد غزوات الفرس وتهديداتهم ، فكانت هذه الحركة بداية لتكوين حلف ديلوس الشهير ، وهو أساس الإمبراطورية الأثينية فى القرن الخامس قبل الميلاد .

ونحن لا يهمنا بعد أن بينا فضل تيمستوكل على هذا النحو ، أن يحاول هيرودوت أبو التاريخ النيل من شأن تيموستوكل والاقلال من أمره ، فكل ما أثاره حوله من ريبة وشكوك لا نثق فيه مطلقاً . وقد عرفت أيها القارئ الكريم من المقالة الأولى أن هيرودوت كان شديد التحامل على بطلنا هذا حتى قسا عليه قسوة شديدة . والغريب أن هيرودوت يتهم تيموستوكل بالخيانة العظمى نحو قومه ، ويحاول أن يقنعنا بأنه أرسل إلى ملك الفرس من يخبره بأنه لن يتعقبه هو وأسطوله ، بل على العكس من ذلك سيحتفظ بالأسطول اليونانى فى جزيرة سلاميس ، وليس هناك من شك فى أن كلام هيرودوت مناقض للواقع . صحيح أن الأسطول اليونانى لم يتعقب الأسطول الفارسى أثر الموقعة مباشرة . وسبب هذا راجع إلى أن اليونان كانوا فى غفوة من غفوة الانتصار ، ذلك أن الانتصار كان عظيما جداً بحيث أدخل على قلوبهم الفرح والسرور فلم يصدقوا أنفسهم أنهم أحرزوا هذا النصر الحاسم ، ولكنهم بعد أن أفاقوا من هذه الغفوة تعقبوا الأسطول الفارسى حتى جزيرة أندروس فوجدوه قد لاذ بالفرار فلم يعد بإمكانهم الالتحام به لإبادته والقضاء عليه ؛ ونحن نرد هذا الاتهام أيضاً لأن أعمال تيموستوكل خير شاهد على أنه كان يخدم وطنه بصدق وإخلاص ، فقد كان هو الوحيد الذى عمل على أن يلزم الأسطول اليونانى سواحل جزيرة سلاميس للدفاع عن الأسر اليونانية المقدسة فى هذه الجزيرة وعن أرض الوطن المقدسة ، فكيف يجوز لعقولنا إذن أن تصدق ، إن كان لها منطق سليم تفكر به أن بطلاً قومياً هذا شأنه فى العمل على القضاء على عدوه بكل الطرق والوسائل يخون قضية وطنه وهو لم يدخر فى سبيل ذلك وسيلة إلا اتخذها كالمكر والخداع حينما أوقع ملك الفرس فى نفسه فأوهمه أن اليونان ينقسمون على أنفسهم وعلى وشك الهروب من المكان الضيق الذى كانوا به عند سلاميس بعد ما علموا من بدء تحرك الفرس وإقدامهم على الهجوم ، مما حفز عاهل الفرس على الإسراع فى هجومه ، وكان هذا الإسراع من أسباب فشله ، ومن العوامل التى ساعدت تيموستوكل واليونان على إحراز هذا النصر الحاسم

ليس هناك من شك فى أن تيموستوكل بطل يونانى عظيم خدم القضية اليونانية بكل صدق وإخلاص ؛ وهو وإن كان قد تخلى عن هذه القضية القومية فإن ذلك كان بعد موقعة سلاميس وهو لم يلتجئ إلى هذا إلا بعد خطوات ، إذ الواقع أن سياسته تطورت جد التطور ، فبعد أن كان يأخذ صف اليونان ويدافع عنهم بشدة ، نجده يسير رويداً رويداً نحو جانب الفرس حتى يصبح من أتباعهم والخاضعين لهم والقائمين بخدمة سلطانهم ونفوذهم ، وأمر هذا التطور عجيب له قصة شائقة سنعرضها عليك أيها القارئ الكريم فى مقالة مقبلة إن شاء الله .

محمد الشمات أيوب

سينما ستوديو مصر

تقدم من الخميس ٩ أكتوبر
والأيام التالية
الأوبريت الرائعة

مصنع الزوجات

اخراج : نيازى مصطفى

تأليف : فريد مبسى

تمثيل

كوكا . محمود ذو الفقار . دولت أبيض . إحسان الجزايرلى

بالاشتراك مع نخبة كبيرة من أقدر الممثلين والممثلات

وفى نفس البرنامج اسكتش مرض عام لجميع الأفلام التى أخرجت فى ستوديو مصر

السجل التجارى رقم ٢٩٧٣ بالقاهرة